

تتحسّر على بقاء محمد ﷺ في سجلات الأحياء، وتتحسّر على عدم التمكن من سبي فتيات المسلمين..؟ ربما كانت تعني أن هناك نية للعودة إلى أرض المعركة من جديد، ومحاولة أخرى للإجهاز على ما تبقى من المؤمنين وهم يدفنون شهداءهم، وربما كانت مجرد زفريات وأمانى. لكن كل ذلك لم يكن خارج نطاق تفكير النبي ﷺ العسكري.. كان ﷺ يقرأ أفكار القوم، ويتصفح أحلامهم، لذلك قرّر أن يقوم بحركة عسكرية لتغطية أسوأ الاحتمالات.

تحدّثنا عن ذلك فتاة شاركت في المعركة.. عائشة رضي الله عنها تحدّثت إلى أحد أبناء أختها - أحد أبناء الزبير بن العوام وتخيره عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ..

فتقول: (يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا. قال ﷺ: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب سبعون رجلاً - كان فيهم أبو بكر والزبير)^(١).

وامتثل أبو بكر والزبير وامتثل معهم ثمان وستون فارساً.. نهضوا تحمّلهم جراحهم، وتحملهم تلك الأحاديث المعطرة عن أولئك الشهداء الذين سبقوهم قبل قليل.. نهض سبعون محارباً نحو باب من أبواب الجنّة مازال مشرعا في الأفق، لكن يبدو أنهم ظفروا ببعض المعلومات الخطيرة عن أبي سفيان وجيشه، وتوصّلوا إلى معرفة ما جرى من حوار دار بين المشركين حول التحسّر على عدم قتل محمد ﷺ وسبي المؤمنات، فعادوا ليخبروا النبي ﷺ حتى يتخذ إجراءً مناسباً.. إنه الآن يأمر الجيش كلّ بالنهوض والتحرك نحو جيش الوثنيين، وبسرعة. فكانت غزوة على هامش أُحد، وسميت فيما بعد بـ:

غزوة حمراء الأسد

فعندما (انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحد، وبلغوا الروحاء قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتهم، شرّ ما صنعتم.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٧).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد، أو بئر أبي عيينة، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١) من بعد ما أصابهم ما أصابهم من فقد الأحباب والأصحاب، لكن قريشاً لاذت بالفرار خشية أن يصيبها ما أصابها في أول المعركة. أو يحدث لها ما حدث في غزوة بدر، فجيش محمد ﷺ كالأسود الجريحة.. الرماة يريدون التكفير عن معصيتهم لأوامر قائدهم ﷺ، وبقية الصحابة يريدون اللحاق بحمزة وعبد الله بن حرام وأصحابهم، لعل الله أن يخاطبهم هذا المساء، لكن قريشاً لاذت بالفرار، فمكث ﷺ وأصحابه رضي الله عنه بعض الوقت، ثم عادوا مثقلين إلى المدينة الحزينة.. المشتاقة إلى نبيها وفرسانها.

سأستأذنكم قليلاً لأسبق رسول الله ﷺ وصحابته، لا إلى المدينة، بل سأعود إلى أرض أحد، فقد خيم الليل على جبالها وشعابها، وهناك حركة غريبة تحدث بين تلك الشعاب.. هناك شبح ينهض ثقيلاً من بين الأموات.

شبح على أرض أحد

دعونا تقترب منه فهو يقف على قدميه.. يترنح من الألم والبرد يزيد من آلامه.. ها هو.. إنه ليس من الجن.. إنه أحد أفراد جيش أبي سفيان، وقد كان طوال اليوم يتظاهر بالموت والدم ينزف منه.

يقول أنس بن مالك: (كان وهب بن عمير شهد أحداً كافراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار، فعرفه فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره، ثم تركه، فلما دخل الليل وأصابه البرد لحق بمكة، فبرأ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر، فقال وهب: لولا عيالي ودين عليّ لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمدًا؟ فقال له صفوان: كيف تصنع؟

فقال: أنا رجل جواد لا ألحق، آتية فأغتره، ثم أضربه بالسيف، فألحق بالخيال ولا يلحقني أحد.

(١) سنده صحيح وهو جزء من حديث الطبراني قبل السابق.

فقال له صفوان: فعيالك مع عيالي، ودينك علي^(١).

لن أكمل هذا الحوار.. سأترك الرجلين وما يكيدان لألحق بحبيبي ﷺ.. ها هو يسير نحو المدينة الحزينة.. دون حمزة.. دون مصعب.. دون سبعين من الشهداء الأبرار، والبيوت تضج بالحزن والنواح.. يدخل ﷺ المدينة، ويمشي بين جدرانها الحزينة وأبياتها المفجوعة، فيحاصره النواح والبكاء في كل الطرقات والدروب.

لم يتوقف النواح في المدينة، ولم تتوقف الدموع ولا الأحزان.. إنها تتقاطر من قلوب المؤمنين، كما يتقاطر سيف هذا المحارب المخيف، الذي يسلم لحبيته سيفاً أحمر يتقاطر موتاً.. سيفاً حنته المعركة لكنها لم تحنِ حاملة..

إنه عليّ بن أبي طالب، وهو الآن برفقة رسول الله ﷺ، ولا أعلم هل هما في بيت النبي ﷺ، أم في بيت فاطمة..؟

يبدو أنهما في بيت فاطمة رضي الله عنها، فقد (جاء علي رضي الله عنه بسيفه يوم أحد قد انحنى، فقال لفاطمة رضي الله عنها: هاكي السيف حميداً، فإنها قد شفنتي.

فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت الألقح، والحارث بن الصمة^(٢).

(١) سنده قوي رواه الطبراني (٦٢/١٧) وابن منده - ذكره في الإصابة.. وسند الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري، حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرواق، أخبرنا جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني - لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك: ... وقد توبع ابن عسكر عند ابن منده تابعه أبو الأزهر.. وأبو الأزهر حسن الحديث إذا لم يخالف، ومحمد بن سهل ثقة، انظر التقريب ٤٨٢ وعبد الرزاق معروف، وجعفر بن سليمان صدوق من رجال مسلم - التقريب ١٤٠ وأبو عمران الجوني اسمه: عبد الملك بن حبيب الأزدي تابعي ثقة من رجال الشيخين، تقريب التهذيب ٣٦٢. وابن منده من شيوخ الطبراني.

(٢) سنده صحيح رواه الحاكم ٢٤-٢٥ واللفظ له والطبراني ٧-١٢٢-١١١٢٢٠ وسند الحاكم هو حدثنا محمد ابن عبد الله الصفار، حدثنا أبو الحسن علي بن محمد الثقفى حدثنا منجاب بن الحارث التميمي قال: وزعم سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس. سفيان وعمرو وعكرمة أئمة ثقات ومنجاب ثقة التقريب ٥٤٥ فقول الحاكم رحمه الله إن الحديث على شرط البخاري فيه نظر، بل العكس فمنجاب من رجال مسلم فقط فالحديث على شرط مسلم، وأبو الحسن ثقة انظر: تاريخ بغداد ١٢-٦٣ وشيخ الحاكم عالم ثقة قال عنه تلميذه الحاكم: أنه محدث عصره، سير أعلام النبلاء ١٥-٤٢٧ وقد توبع الثقفى عند الطبراني وفيه تصريح بسماع سفيان من عمرو.

تَوَجَّهَ ﷺ إلى بيته خلال النواح والبكاء.. إنه يستمع إلى النائح والوجد يحرق أكبادهن، فيتذكر عمه حمزة رضي الله عنه، فتعاوده الأحران من جديد، فيستجيب لها بكلمات تفيض وجداً ووفاءً لذلك الفقيد الحميم، فقد (مرَّ ﷺ بنساء عبد الأشهل)^(١) عندما (رجع رسول الله ﷺ يوم أحد، فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهنَّ، فقال: لكن حمزة لا بواكي له!

فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، ووقد ﷺ، فاستيقظ وهن يبكين، فقال: ويلهنَّ، إنهن لها هنا حتى الآن)^(٢) (ويحهن ما انقلبن بعد)^(٣) ولا انصرفن إلى بيوتهن حتى الآن.. ٩.

إنها بعض عادات الجاهلية التي لازال التمسك بها مباحاً حتى الآن، لكنها عادة لا تعبّر عن الحزن العميق فقط.. إنها تتجاوز الحزن إلى شيء خطير جداً.. شيء جاء الإسلام ليمحوه من أعماق كل مؤمن ومؤمنة، وهذا الشيء هو الجزع من أقدار الله، والاحتجاج على قضائه، وهو ما قد يؤدي إلى هدم أحد أركان الإيمان الستة التي جاء بها الإسلام.. أي الركن السادس، فأركان الإيمان هي:

- (١) الإيمان بالله.
- (٢) وملائكته.
- (٣) وكتبه.
- (٤) ورسله صلى الله وسلم عليهم جميعاً.
- (٥) والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور.
- (٦) الإيمان بقضاء الله وقدره.

ولهذا نزل الأمر من الله بـ:

(١) سنده حسن رواه ابن ماجه ١-٥٠٧ والحاكم ٢-١٩٥. عن ابن وهب وعبيد الله ابن موسى أخبرنا أسامة ابن زيد عن نافع عن ابن عمر. أسامة حسن الحديث التقريب ٩٨ وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه ١-٢٦٥ وبقية السند كالذهب.

(٢) هو الحديث السابق.

(٣) هو الحديث السابق.

تحريم النياحة على الميت

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: (رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلاكهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له.

فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، وردد ﷺ فاستيقظ وهن يبكين، فقال: ويلهن إنهن لها هنا حتى الآن! مروهن فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم)^(١).

ولم يقف الأمر عند النهي الخفيف فقط، فبعد فترة من الزمن نزل الوحي يشدد تحريم النياحة على الميت، وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين والمؤمنات.. يتتبع آثار الجاهلية، يمحوها ويغرس مزيداً من الإيمان مكانها.

يقول ﷺ: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب)^(٢)، وسربال القطران يعني ثوباً والقطران دهان يدهن به البعير الأجر ب..

النياحة من أمر الجاهلية، وهي ليست -أبداً- مقياساً لمدى الشعور بالحزن وفقدان الحبيب.. إنها نوع من التطرف والغلو في إظهار المشاعر، ولذلك نزل الوحي مرة أخرى مذكراً، وواصفاً تلك الممارسات بشيء خطير جداً يؤثر على عقيدة المسلم، فقد قال ﷺ: (اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)^(٣) لأن في الأمرين احتجاج على الله.

توقف النواح، ولم تتوقف الدموع، وكذلك الحياة لم تتوقف، ففي المدينة كانت الرسالة هي الحياة، وعلى الأحياء أن يؤدوها كما أداها أولئك الشهداء.

(١) سنده حسن ورواه ابن ماجه (الصحيح ٢٦٥/١) والحاكم (١٩٥/٢) ابن وهب وعبيد الله بن موسى أخبرنا أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر وأسامة بن زيد حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ٩٨) وصح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٥/١) وبقيّة السند كالذهب.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٤٤.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ١-٨٢.

وتمرّ الأيام ويتبقى لأحدٍ وشهدائها ذكريات، وعطر يفوح في أجواء المدينة وأحاديث أهلها، وتمرّ الأيام فيولد لأحد الأنصار غلام، فيجتار في تسميته، فتتجه به الحيرة إلى أحب الناس إليه.. إلى رسول الله ﷺ، فيبحر به ﷺ إلى أبهج الذكريات وأقساها.. يبحر به إلى

أحب الأسماء إلى رسول الله ﷺ

يقول جابر بن عبد الله: (ولد لرجل منّا غلام، فقالوا: ما نسمّيه؟ فقال النبي ﷺ: سمّوه بأحب الأسماء إليّ (حمزة))^(١)، فحمزة مازال عالقاً في الذاكرة.. متجذراً في القلب النبوي الكريم، لكن الله سبحانه ينزل على نبيه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: (إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن)^(٢).

ولما رزق أحد الأنصار بغلام.. سماه محمداً، فاحتجّ الأنصار على هذا الاسم، وبخلوا به عليه إكراماً لرسول الله ﷺ..؟ فكان جواب رسول الله ﷺ على ما حدث، ما نقله جابر بن عبد الله الأنصاري عندما قال: (ولد لرجل منّا غلام، فسماه محمداً، فقال له قومه: لا ندعك باسم رسول الله ﷺ).

فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي، ولا تكتنوا بكنتي)^(٣).

إذاً فاسم محمد اسم محبّب إلى رسول الله ﷺ، ومحجّب إلى الله سبحانه، ولذلك قال ﷺ لرجل: (من الأنصار ولد له غلام، فأراد أن يسمّيه محمداً، فأتى به النبي ﷺ، فقال: أحسنت الأنصار).

سمّوا باسمي ولا تكتنوا بكنتي)^(٤)، فما هي هذه الكنية التي نهاهم ﷺ عن التكنّي بها..؟

(١) سننه قوي رواه الحاكم ٢١٦-٢ حدثنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، أنا عبد الله بن صالح البخاري، حدثنا يعقوب بن حميد بن كاسب، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن جابر. شيخ الحاكم واحد عصره في الحفظ والإتقان والورع والذاكرة، والتصنيف التذكرة - ٩٠٢) وشيخه ثقة ثبت انظر: المنتظم (١٤٥/٦) وسفيان وعمرو بن دينار ثقتان ثبتان معروفان وعمرو سمع من جابر، فيتبقى يعقوب وهو حسن الحديث فهو كما لخص الحافظ أقوال العلماء: صدوق ربما وهم فحديثه حسن ٦٠٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - الأدب (٢١٣٢).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم كتاب الأدب (٢١٣٣).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٣).

جابر بن عبد الله أيضاً.. يحدثنا أيضاً فيقول: (ولد لرجل منّا غلام، فسّماه القاسم، فقلنا: لا نكنيك أبا القاسم ولا ننعّمك عيناً. فأتى النبي ﷺ فذكر له فقال: اسم ابنك عبد الرحمن)^(١).

وعندما (نادى رجلٌ رجلاً بالبقيع: يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لم أعنك، إنما دعوت فلاناً.

فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي ولا تكنوا بكنيتي)^(٢).

حدثنا جابر رضي الله عنه عن أشياء كثيرة حدثت بعد غزوة أحد، فماذا عن جابر نفسه؟ وماذا عن أخواته الصغيرات.. ماذا عن دين والده الذي رحل وتركه أمانةً يتقل كاهله..؟

الدّين لصاحبه همّ بالليل وذلّ في النهار، فإلى أي شيء تحولت أحوال جابر، الذي وجد نفسه وحيداً.. مسؤولاً عن تسع بنات.. مسؤولاً عن دين ضخّم لا يستطيع أداءه وهو شاب صغير لم يتعرض من قبل لمثل هذه المسؤوليات..؟ إنه شاب صغير أعزب أفاق على أمانة كالجبال تحاصره.. فإلى أين يتجه و:

إلى أين تتجه الهموم بجابر

ليس هناك أرحب من رحمة الله لجابر، والنبي ﷺ مساحة من هذه الرحابة والرحمة فهو (رحمة مهداة)^(٣) من الله لهذه الأمة، ولكل فرد منها.. لم يكن بينه وبين أصحابه حواجز ولا حرس (كان ﷺ لا يدفع عنه الناس، ولا يضربوا عنه)^(٤).

جاءه رجل فشعر ذلك الرجل بخوف ورعدة من لقاءه ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)^(٥).. القديد،

(١) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٢) .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣١) .

(٣) حديث صحيح صحيح الجامع. وقد رواه بسند جيد كل من الحاكم (٩١/١) الطبراني في الصغير (١٦٨/١).

(٤) حديث صحيح صحيح الجامع (٨٧٦/٢) .

(٥) حديث صحيح صحيح الجامع (١١٨٥/٢) .

ذلك اللحم المملح المجفّف في الهواء والشمس. إذاً فلا داعي للخوف، ولا للرعدة والانتفاض، وعلى عكس هذا الرجل.. كان هناك من الناس من يملك جرأة أكثر مما هو مطلوب مع هذا النبي المتواضع عليه السّلام، فقد (كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه)^(١) (فأغلظ^(٢))، فهمّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً. ثم قال ﷺ: أعطوه سنّاً مثل سنه)^(٣) (فطلبوا سنّه فلم يجدوا إلا سنّاً فوقها)^(٤)، فقال: أعطوه.

فقال: أوفيتني أوفى الله بك. قال النبي ﷺ: إن خياركم أحسنكم قضاءً)^(٥) رضي الرجل وذهب مسروراً بما حصل عليه، وتعلّم الصحابة منه ﷺ حسن الوفاء، وحسن الأخلاق، لكن جابر بن عبد الله لا يملك ما يقضي به كل دينه، فاتّجه إلى الرحمة المهداة يسأله العون وتقريج هذا الكرب الشديد، فكان ﷺ له في المكان المطلوب والزمان المناسب، و

على باب رسول الله ﷺ كان جابر يتعلم أدباً

يقول جابر رضي الله عنه: (إن أبي قتل يوم أُحُد وتترك تسع بنات كنّ لي تسع أخوات)^(٦) (وترك عليه ثلاثين وسقاً)^(٧) لرجل من اليهود فاستنظره جابر فأبى أن ينظره)^(٨).

لم يكن هذا اليهودي الوحيد الذي له حق على جابر، فوالده ترك عليه ديناً غير هذا. حيث يقول (إن أبي ترك عليه ديناً، وليس عندي إلا ما يخرج نخله، ولا يبلغ ما يُخرج سنين ما عليه)^(٩) من دين (فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضاً فأبوا)^(١٠)

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥). يعني أن النبي استلف بغيراً.

(٢) تكلم مع النبي ﷺ بأسلوب غليظ.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٦).

(٤) أي أكبر منها في السن وأعلى في الثمن.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).

(٧) الوسق يساوي ستين صاعاً.

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٩٦) أي لم يمهله ويؤجل سداده.

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).

ورفضوا التنازل عن أي شيء (فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه؟ فأبوا، ولم يروا أن فيه وفاءً، فأتيت النبي ﷺ)^(١) (فدققت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا. فقال ﷺ: أنا! أنا!، كأنه كرهها)^(٢) لأن كلمة: (أنا) ليست إجابة، ولا تعريفاً بالطارق، بل هي استدعاء لمزيد من الاستفسار والتساؤل، ولو قال جابر: (أنا جابر) لما كره ﷺ ذلك، ولكان أفضل.

تعلم جابر أدباً ربيعاً من نبيه ﷺ، ثم بثّ للنبي ﷺ شكواه وديونه، وتعتت الدائنين، فوجده رحيماً معيناً على النوائب والشدائد.

قال جابر للنبي ﷺ: (قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أُحد وترك ديناً كثيراً، وإنني أحب أن يراك الغرماء)^(٣) (فانطلق معي لكي لا يفحش عليّ الغرماء)^(٤) ثم يقول: (فاستشفعت به عليهم فأبوا)^(٥) و(استعتت النبي ﷺ على غرمائه أن يضعوا من دينه، فطلب النبي ﷺ إليهم فلم يفعلوا)^(٦) (فاشتد الغرماء في حقوقهم، فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فسألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويحللوا أبي.. فأبوا. فلم يعطهم رسول الله ﷺ، ولم يكسره لهم، ولكن قال: سأغدو عليك إن شاء الله تعالى.

فغدا علينا حين أصبح، فطاف في النخل، فدعا في ثمره بالبركة فجددته)^(٧) فقال ﷺ: (إذا جددته فوضعتة في المربد)^(٨) (فبيدر كل تمر على ناحية)^(٩) (فصنّف تمر ك أصنافاً: العجوة على حدة، وعذق ابن زيد على حدة، ثم أرسل إليّ. ففعلت، ثم أرسلت إلى النبي ﷺ فجاء)^(١٠)، و

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٢٥٠).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧) والمربد هو مكان يجفف فيه الثمر.

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).

جاءت المعجزة

ثم قال: ادع غرماءك^(١) (فلما نظروا إليه أغروا بي^(٢) تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات، ثم جلس عليه)^(٣) (ثم دعا)^(٤) (ثم قال: ادع أصحابك.

فما زال يكيل لهم حتى أدّى الله أمانة والدي، وأنا والله راض أن يؤدي الله أمانة والدي ولا أرجع إلى أخوتي تمرة، فسلمّ والله البيادر كلّها، حتى أني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله ﷺ كأنه لم ينقص تمرة واحدة)^(٥) (فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم)^(٦) (فما تركت أحداً له على أبي دين إلاّ قضيته، وفضل ثلاثة عشر وسقاً، وسبعة عجوة وستة لون، أو ستة عجوة وسبعة لون، فوافيت رسول الله ﷺ المغرب فذكرت له ذلك، فضحك، فقال: أتت أبا بكر وعمر فأخبرهما. فقالا: لقد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك)^(٧) (ثم جئت رسول الله ﷺ وهو جالس فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ لعمر: اسمع - وهو جالس- يا عمر: فقال عمر: ألا يكون قد علمنا أنه رسول الله، والله إنك لرسول الله)^(٨).

وانصرف جابر إلى أخواته مبشراً بكرامة الله لوالدهن في حياته وبعد مماته، فقضاء الدين بهذه الطريقة لا يمكن إلاّ أن يكون إكراماً من الله لذلك الشيخ الراحل.. ذلك الشيخ الذي عانى الكثير.. الكثير من أجل لقاء الله، وهو إكرام لهذا الشاب الذي رضي بقضاء الله وقدره، وحمل وهو صغير أمانة ضخمة وثقيلة، وهل هناك أثقل من إعالة أسرة كبيرة كهذه! وهل هناك أثقل من دين يطالبك به يهودي..!٦٠

أجل هناك، وفي بيت سعد بن الربيع الشهيد الكريم، الذي ناصف عبد الرحمن ابن عوف ماله وأهله.. في بيت هذا الربيع الممتد كالبصر حل الجفاف والفقر، لقد

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).

(٢) هيجوا بي.. أي أثاروا.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).

ذهب مال سعد بن الربيع وثروته مع الريح والجشع.. سعد بن الربيع رضي الله عنه لم يترك سوى زوجته وابنتيه وثروته، ولا أدري هل طلق زوجته الثانية أم توفيت؟.. لكن الذي أعرفه أن ماله قد ذهب، ف:

من أخذ مال سعد بن الربيع؟

ها هي أم الفتاتين.. زوجة سعد بن الربيع، وبعد مرور أيام وشهور تخرج حزينة على زوجها وبناتها.. تتجه نحو النبي ﷺ تسأله حلاً.. تسأل الله فرجاً، فلا سعد ولا بناته يستحقون كل هذه المعاناة. تقف تلك الحزينة أمام الرحمة المهداة.. (جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أحد «معك» شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما، فاستفاه^(١)، فلم يعد لهما مالاً، والله لا تتكحان إلاّ ولهما مال^(٢)).

فقال رسول الله ﷺ: يقضي الله في ذلك.

فأنزل الله عليه آية الميراث^(٣)، وهي ضمن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١١﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾^(٤).

(١) أخذه غنيمة له مثل المال الذي يؤخذ دون حرب ولا جهد.

(٢) أي انه لن يرغب أحد فيهما وهما معدمتان.

(٣) حديث حسن انظر: ما بعده فهو جزء منه.

(٤) سورة النساء: الآيات ٩ - ١١.

(فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما، فقال: أعطِ ابنتي سعد الثلثين، وأمّهما الثمن، وما بقي فهو لك)^(١).

إنها قسمة الله، لا قسمة الجاهلية والعادات والتقاليد.. آية تغسل قلب سامعها من الجشع.. تغسله بأنهار العطف والرافة.. تجعله في مكان المفجوع بنفسه.. تجعله يشعر بمرارة اليتيم.. بليل اليتيم يخيم على أبنائه، فإذا لم يكن صاحب قلب رقيق ومرهف، فالآية التي بعدها تصدع قلبه المتحجر، وتملاً بطنه الجشع بالجمر والنار، وتقذف به في الجحيم والسعير الذي لا ينطفئ، أما الآية الثالثة، فرحمة الله بالأولاد أكثر من رحمة آبائهم بهم. إن الله يوصي الآباء بأبنائهم، والموصي أرحم من الموصى.

وقد جعل الله نصيب الذكر أكثر من نصيب الأنثى في الميراث مرتين، لأن على الذكر مسؤوليات تجاه الأنثى عديدة، فالرجل يجب عليه الإنفاق على أمه وأخته وزوجته وابنته، وهو الذي يدفع المهر لزوجته، بل يجب عليه أن يكسو زوجته، وأن يقدم لها الطعام جاهزاً للأكل، كما قال ﷺ: (حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى)^(٢) إنها فريضة من الله، وهو الذي خلق هذا الإنسان، وهو أعلم به وأحكم، وأدرى بما يجعل حياته سعيدة مشرقة دائماً.

وقد بين ﷺ أن الفتاتين لهما حكم ما فوق الاثنتين عندما خاطب شقيق سعد بن الربيع. أخبرنا بذلك جابر بن عبد الله الذي تراكمت عليه المسؤوليات، وربما كانت هي سبب مرضه الآن.. إنه يعاني من وعكة ألزمته الفراش بين أخواته يمرضنه، ويخشين أن يفادرن كما غادر والدهن.. لقد اشتدّ به المرض فلم يعد يعقل شيئاً، وانتقل خبر مرضه إلى رسول الله ﷺ، فاتجه هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه إلى حي بني سلمة لزيارة جابر ذلك الشاب الصغير الذي احتفى به عليه السلام كثيراً.

(١) سنده حسن رواه ابن سعد ٢-٥٢٤ واللفظ له عدا «معك» وأحمد ٢-٢٥٢ من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل وهو تابعي حسن الحديث عن جابر. والراوي عن ابن عقيل هو عبيد الله بن عمرو الرقي: ثقة. التقريب ٢٧٢.

(٢) حديث صحيح - صحيح الجامع (١/٦٠٢).

يقول رضي الله عنه: (مرضت فجاءني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان) (١) (في بني سلمة) (٢) (فأتاني وقد أغمي علي) (٣) (فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء، فتوضأ منه ثم رش علي، فأفقت. فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟) (٤) (يا رسول الله إنما لي أخوات) (٥) (يا رسول الله لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث) (٦) (كيف أقضي في مالي، كيف أصنع في مالي؟ فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث) (٧)، وهي الآية التي بعد الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٨).

فهو أعلم بخلقه، وأدرى بما يجعلهم سعداء في الدنيا والآخرة.. إنه يكرمهم بآيات الميراث، ويحفظ حقوق الأيتام والورثة، وفي ذلك تكريم للكريم سعد بن الربيع، وتكريم لعبد الله بن حرام.

وتمرَّ أيام فينهض جابر من مرضه الذي ألمَّ به، ولئن كان المرض قد غادر جابر، فإن هناك من تغلغل المرض في جسده ولم يغادره حتى الآن.. في المدينة رجل هاجر إلى النبي ﷺ وحيداً بعد أن أرغم على مفارقة زوجته وهو في الطريق، فقد أرغمه

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٤٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥٦٧٦).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).

(٨) سورة النساء: الآية ١٢.

أهلها على تركها والرحيل دونها ودون ابنها .. إنه الصحابي الجليل أبو سلمة الذي يهاجمه المرض بضراوة الآن، وتنقض على جسده جراحات أُحد، وحوله أبنه وزوجته المجاهدة الصابرة، ذات الهجرة العسيرة والذكريات المريرة .. إنها تبكي الآن، وهي تعاني وداع زوجها الحبيب .. إنه لن يرى هذا الجنين الذي يسكن أحشائها .. لن يداعبه، ولن يتمتع بطفولته .

مات أبو سلمة رضي الله عنه، فبكت أم سلمة وبكى أحبابه، لكن مرارة الحزن لم تنس هذه المؤمنة الصابرة نفسها .. لقد صبرت في السابق، وها هي الآن تتحامل على جراحها .. تنهض من بين آلامها .. تتوجه نحو النبي ﷺ تسأله ماذا تقول في مصابها الأليم هذا .. تسأله حتى لا تقع في ذنب النواح والاعتراض على قضاء الله وقدره .

تقول رضي الله عنها: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا حضرتم الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون. فلما مات أبو سلمة قلت: يا رسول الله، كيف أقول؟

قال ﷺ: قل: قولِي: اللَّهُمَّ اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة^(١) .

فدعت أم سلمة بتلك الدعوة، وارتفعت دعوتها إلى الباري فاستجاب لها . ف

ماهي عقبى أم سلمة

سنعرف ذلك لاحقاً، أما الآن فسنترك «هند» أم سلمة وأحزانها ودعاءها إلى أحزان أخرى .. أحزان تراكمت على صدر صحابي كريم، وملأت بيته حتى ضاق به .. عثمان بن عفان الذي فقد حبيبته رقية بعد غزوة بدر، وفقد قوته في غزوة أحد، فهرب من المعركة بعد هزيمة المسلمين ونزول الرماة من الجبال .. عثمان يعيش حالة من الحزن والأسف لا يحسد عليها . لا أدري ما مبررات هروبه من المعركة، وهو الذي شارك في صناعة الانتصار وإلحاق الهزيمة بالمشركين في أوّل النهار؟ مهما كانت المبررات، لقد حدث ما حدث لهذا الصحابي العظيم، وهو بشر غير معصوم، والله أرحم من أن يدعه للأحزان تفتك به وتغتاله . لقد ضاقت به الدنيا ففرجها الله مرتين:

(١) صحيح مسلم ٢-٦٢٢ .

أما الأولى فقد أنزل الله فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.. أنزل الله عضوه ورحمته به، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١).

وفي ذلك يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب عن عثمان: (أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له) (٢)..

فرح عثمان بهذه الآية، وانزاح همّه الثقيل.

وأما الثانية: فقد أقبل عليه النبي ﷺ يبشّره بهذه الآيات، ويبشّره بعودة الصهر بينهما، فقد وافق ﷺ على تزويجه من ابنته أم كلثوم، فأى سعادة يعيشها عثمان الآن؟ لقد عرف الناس بعد هذا من هو عثمان، وما منزلته عند الله وعند رسوله، فلقبوه بلقب يشع من بيت النبوة.. لقبوه ب: (ذي النورين) وهو أسعد الناس بعمره ونسبه وحبّ الله ورسوله، وأم كلثوم تشاطره كل ذلك وتتعطر به، أما أختها فاطمة فسعيدة بأختها أم كلثوم، وسعيدة بهدية جميلة تقدمها لأبيها ولزوجها عليّ رضي الله عنهم جميعاً.

وبينما كان الجميع يترقبون الهدية بفرح.. كانت هناك امرأة مهمومة.. يملكها الفرع مما قد يحدث للنبي ﷺ أو لفاطمة.

الرؤيا من جديد تخيم كالخوف على عالم امرأة صالحة تدعى (أم الفضل) وهي زوجة عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب، التي تركت مكة والعباس إلى الله ورسوله ﷺ، فما هي:

رؤيا أم الفضل

تقول رضي الله عنها: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رسول الله ﷺ، فجزعت من ذلك، فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له؟

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

فقال ﷺ: خيراً، تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم.
فولدت^(١) فاطمة.. ولدت حباً جديداً للنبي ﷺ ملك عليه قلبه.

فاطمة تلد حرباً

سماه والده: (حرباً).. إنه يملأ بيت النبوة برائحة الأحفاد البريئة المنعشة.. (حرب) يزاحم أمه وأباه في قلب جده ﷺ، وقد بُشِّرَ بمولد هذا الطفل الجميل، فجاء ﷺ والسعادة تملأ صدره، فوجد الابتسام والفرح يغمران المكان، عليٌّ سعيدٌ، وفاطمة أكثر سعادة.

يقول عليٌّ رضي الله عنه: (لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: حرباً.

قال ﷺ: بل هو حسن)^(٢).

غير ﷺ ذلك الاسم الحاد باسم جميل.. يدخل البهجة على النفوس، فحمل المولود الطاهر اسمه الجميل، وحمله ﷺ بين يديه وقبله، وفعل شيئاً رآه أحد موالي النبي ﷺ الذي كان يشارك بيت النبي ﷺ فرحتهم بهذا القادم الحسن، فسألناه: أخبرنا يا أبا رافع.. ماذا رأيت..؟

أبو رافع رضي الله عنه يصف ذلك المشهد المفرح الذي لم يدخل السرور على بيت النبي ﷺ فقط، بل امتدت بهجته وبركته إلى أحوج الناس إلى البهجة، فيقول: (لما ولدت فاطمة حسناً قالت: ألا أعقّ عن ابني بدم «بكبشين»؟.

(١) سنده حسن رواه أحمد (٣٣٩/٦) واللفظ له، والطبراني (٩-٥/٣) وروى آخره من الطريق نفسها ابن خزيمة (١٤٣/١) وحسنه أستاذنا الشيخ محمد مصطفى الأعظمي حفظه الله، ووافقه الإمام الألباني فلم يعلق عليه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٥/١) وصحيح أبي داود (٧٥/١).. وسند أحمد هو: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا إسرائيل عن سماك عن قابوس بن المخارق عن أم الفضل. وقابوس تابعي لا بأس به - التقريب (٤٤٩) ولا يضره أن يكون قد جاء - عند الطبراني أنه رواه عن أبيه عن أم الفضل فأبوه صحابي. وسماك بن حرب تابعي صدوق وروايته هذه ليست عن عكرمة - التقريب (٢٥٥) وإسرائيل ثقة معروف مر معنا كثيراً - التقريب (١٠٤) وقد تويع.. وتلميذه ثقة من رجال البخاري ومسلم (السابق-٥٩٢).

(٢) سنده قوي رواه أحمد ٩٨-١ و١١٨ واللفظ له والبخاري في الأدب (٢٨٦) وغيرهم من طرق عن أبي إسحاق السبيعي عن هاني بن هاني عن علي. أبو هاني تابعي وثقه العجلي والنسائي. التهذيب ١١-٢٢ وله شاهد عند الطبراني بسند منقطع.

قال ﷺ: لا، ولكن احلّقي رأسه وتصدّقي بوزن شعره من فضّة على المساكين والأوقاض (وكان الأوقاض ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في المسجد أو الصفة) ففعلت ذلك^(١) وتصدّقت على الفقراء والمحتاجين، لكن ماذا عن:

عقيدة الحسن

ماذا عنها والنبي ﷺ يقول: (كل غلام رهينة بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويحلّقي رأسه، ويسمى)^(٢)..

لقد أحب ﷺ أن يقدم بنفسه عقيدة الحسن، حيث يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رسول الله ﷺ عَقَّ عن الحسن)^(٣) (كباشين)^(٤)، ووقت العقيقة الأفضل هو قوله ﷺ: (العقيقة تذبح لسبع، أو لأربع عشرة، أو لإحدى وعشرين)^(٥).

وفي يوم جميل بالحسن أكل الفقراء وأهل الصفة من العقيقة، وشاركوا النبي وأهل بيته الاحتراف بالحسن، أما هذا الطفل الحسن رضي الله عنه فقد أرضعته أمّه فاطمة، ثم بعث به ﷺ إلى تلك المرأة الصالحة، التي رأت في منامها بشرى ولادة الحسن.. بعث ﷺ بالحسن إلى أم الفضل، وها هي تحدّثنا عن رضاعته، وعن ضربه وعن حبه.

أم الفضل تضرب الحسن

تقول رضي الله عنها: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رسول الله ﷺ، فجذعت من ذلك فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك. فقال ﷺ: خيراً، تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم).

(١) سنده حسن رواه الطبراني ٢-٣٠ وابن الجعد ٢٢٤ وأحمد ٦-٣٩٠ من طريق شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن علي بن الحسين عن أبي رافع. وروى أحمد متابعاً لـ شريك، وهو حسن من أجل ابن عقيل. التقريب ٢٢١.

(٢) صحيح الجامع (٢-٨٢٥).

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود ١-٢٨ عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، وهذا سند صحيح والنسائي ٧-١٦٤ عن حسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه والحاكم ٤-٢٦٥ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأبو يعلى ٥-٣٢٣ عن أبي الزبير عن جابر وعن جرير عن قتادة عن أنس ٣-٤١ وغيرهم.

(٤) حديث صحيح عند الحاكم وأبي يعلى كما مر في التخرّيج السابق.

(٥) صحيح الجامع (٢/٧٥٩).

قالت رضي الله عنها: فولدت حسناً فأعطيتها، فأرضعته حتى تحرك أو فطمته. ثم جئت به إلى الرسول ﷺ، فأجلسته في حجره فبال، فضربت بين كتفيه. فقال ﷺ: ارفقي بابني رحمك الله (أو أصلحك الله) أوجعت ابني. قلت: يا رسول الله اخلع إزارك والبس ثوباً غيره حتى أغسله.

قال ﷺ: إنما يغسل بول الجارية، وينضح بول الغلام^(١) أي يرش بول الصبي إلا إذا صار يأكل الطعام، فعند ذلك يغسل بوله، والحسن ما زال رضيعاً.. ينعم بقلب جده ﷺ وقبلاته وأحضانه.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ يمصّ لسانه أو شفته (يعني الحسن بن علي صلوات لله عليه) وإنه لن يعذب لسان أو شفتان مصّهما رسول الله ﷺ)^(٢).

ذلك الطفل البريء.. ذلك البرد الطهور.. الحسن بن علي رضي الله عنه يملأ قلب النبي ﷺ ويملكه، وتمرّ الأيام فيكبر، ويزداد شبيهه بالنبي ﷺ، فيقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي)^(٣).

يكبر الحسن ويكبر حبه بين حناياه ﷺ، فيقول البراء رضي الله عنه: (رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه يقول: اللهم إني أحبه فأحبه)^(٤)، ويبدأ الحسن يلثغ بالكلمات.. يتعثر في نطقها.. يقلبها.. يعبث لسانه الصغير بأحرفها، فيزداد حسناً وبهاءً، ويبدأ الخطو واللعب، ويخرج إلى الطريق ليلعب مع الأطفال، فيراه والده وأبو بكر رضي الله عنهما وهما يمشيان، فيسرع إليه أبو بكر ويأخذه من فوق الأرض ليجمعه فوق عنقه، ويدلي قدميه الناعمتين على كتفيه، ويفديه بأبيه ويردّد كلمات تضحك والده علياً.

(١) سنده حسن وهو حديث أم الفضل السابق. وقد ثبت علمياً أن هناك فرقاً بين بول الغلام والبنت الرضيعين، راجع لمعرفة ذلك موقع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٩٢ حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا حريز عن عبد الرحمن ابن أبي عوف الجرشى عن معاوية: هاشم ثقة ثبت، التقريب ٥٧٠ وحريز أوثق منه التهذيب ٢-٢٢٧ وعبد الرحمن تابعي كبير ثقة، التقريب ٣٤٨. ولك أن تتصور مدى الأمانة العلمية لدى رجال هذا السند رغم سلوكيات بعضهم تجاه علي رضي الله عنه. فمعاوية حاربه، وحريز ناصبي ومع ذلك يأبى عليهم إيمانهم وصدقهم أن يخفوا مثل هذا الخبر، وهي شهادة لعلم الجرح والتعديل ونقاده رحمهم الله، ومدى دقتهم في ذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٥٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٤٩).

يقول أحد الصحابة الذين شاهدوا حب أبي بكر للحسن: (صلى بنا أبو بكر العصر، ثم قام وعلي يمشيان، فرأى الحسن يلعب مع الغلمان، فأخذه أبو بكر، فحمله على عنقه، وقال:

بأبي شبيهه النبي ليس شبيهاً بعلي

وعلي يبتسم^(١) (ويضحك)^(٢).

ولا يلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك.. إنه ابن حبيبه وصاحبه ونبيّه، وحبّه من الإيمان، وأبو بكر متضلع بالإيمان وحب آل بيته وحب هذا الطفل الجميل. أبو بكر يفعل ما كان ﷺ يفعله بالحسن، حين يقول البراء بن عازب: (رأيت النبي ﷺ واضعاً الحسن على عاتقه «وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»، وقال: من أحبني فليحبه)^(٣) لم يكن الحسن فوق عاتق النبي ﷺ فقط.. كان يتمشى في قلبه ويتجول في غرفاته وممراته.. كان يحتل قلبه وجسده ومشاعره.. ها هو رجل من الأزدي يبلغ الدنيا وصية نبيّه ﷺ وهو يحتضن الحسن داخل حبوته، فيقول: (أشهد لقد رأيت رسول الله ﷺ واضعه في حبوته وهو يقول: من أحببني فليحبه، وليبلغ الشاهد الغائب)^(٤).

ولم يكتف هذا الطفل البريء باقتحام قلبه ﷺ، بل تجاوزت براءته كل الحدود، فصار يقتحم على جده ﷺ صلاته.

ها هو الحسن يدخل على جده وهو يصلي بأبي بكر وعمر وعثمان ووالده علي وبقية الصحابة رضي الله عنهم.. يركض الحسن.. يلهو داخل المسجد، ويتجه نحو جده ﷺ، فيقفز على ظهره الشريف، ويمتطيه كفارس مغوار.. فماذا فعل ﷺ؟ وما موقف والده وبقية الصحابة من فرح ذلك الطفل واقتحامه عالم النبي ﷺ وهو خاشع مع ربه..؟

(١) سير أعلام النبلاء (٢٤٩/٣) بسند البخاري وهو عند البخاري (٣٥٤٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٤٢).

(٣) سنده صحيح رواه أبو الطياري ٧٢٢ واللفظ له والترمذي ٣٧٨٣ والزيادة له عن شعبة عن عدي بن ثابت سمعت البراء.. وعدي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٣٨٨.

(٤) سنده صحيح رواه البخاري خلق أفعال العباد (٩١) والحاكم ٣-١٩٠ وأحمد ٥-٦٦ من طريق شعبة عن عمرو بن مرة سمعت عبد الله بن الحارث يحدث عن زهير ابن الأقرع عن الرجل الأزدي. زهير تابعي ثقة وليس كما قال الحافظ: مقبول ٦٦٨ وتلميذه ثقة التهذيب ٥-١٨٢ وعمرو بن مرة أوثق من الاثنين ويشهد للحديث ما قبله.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رسول الله ﷺ كان يصلي، فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه، فيرفع رسول الله ﷺ رفقاً رفقاً لئلا يصرع) (فعل ذلك غير مرة) فلما قضى صلاته، قالوا: يا رسول الله رأيناك صنعت بالحسن شيئاً ما رأيناك صنعته. قال ﷺ: إنه ريحانتي من الدنيا^(١).

نبي لا يقاوم عطر الطفولة المنعش.. وبرائتها التي تهزم القلوب.. طفولة منحها الإسلام مساحة من الحب والرحمة والتسامح.. مساحة فسيحة.. فسيحة تمتع بها الحسن، ونعم فيها بطفولته وعفوئته، وتمتع بها أطفال المسلمين من بعده و..

تتمادي البراءة فيتمادي الحب

وتتسع الرحمة، فرسول الله ﷺ هذه المرة لا يذهب إلى المسجد وحده، بل يحمل حفيده وريحانته الفواحة معه، وهو يعلم ما قد يفعل الطفل أثناء الصلاة.. أحد الذين رأوا ورووا تلك القصة المفعمة بالطفولة والعبادة يتحدث إلينا.

صحابي اسمه شداد يقول: (خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً^(٢))، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، فرفعت رأسي، وإذا بالصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك.. ١٩.

قال ﷺ: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته^(٣).

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥١-٥ وابن حبان ٤١٨-١٥ والطبراني ٣-٣٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن أخبرني أبو بكرة. وفي هذا السند مدلسان الحسن ومبارك رحمهما الله، أما الأول فصرح بالسمع من شيخه، وأما مبارك فقد توبع عند الطبراني ٣-٣٤ تابعه إسماعيل بن مسلم، فإن كان العبيدي فهو ثقة، وإن كان المكي فهو ضعيف.

(٢) أو حسيناً كما جاء في النص وفعلت ذلك من أجل السياق.

(٣) حديث صحيح رواه أحمد ٢-٤٩٣ والنسائي صحيح الألباني ١-٢٤٦.

إنها رحمة يشعر بها ﷺ ويحرض أصحابه على الشعور بها .. تقول عائشة رضي الله عنها: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: تقبلون الصبيان؟ فما قبلهم).

فقال النبي ﷺ: «أَوَأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»^(١).

(وقبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم)^(٢).

ورسول الله ﷺ يقول عن نفسه: (إنما أنا رحمة مُهداة)^(٣)، فهل هناك ألد من الرحمة وأجمل من الهدية .. لقد كان بين أضلاعه قلب كالنسيم البارد خلال القيث والهجير .. كان سلوكه مطراً لذيذاً على شفتي صحراء تتلمظ عطشاً.

ذات يوم وبينما كان ﷺ يخطب أصحابه على منبره، إذ به يذهل عن خطبته وعن الناس من حوله، بل وعن نفسه.

الرحمة تذهله ﷺ

عبد الله بن عمر بن الخطاب رأى وسمع ما حدث، وأدهشته تلك الرحمة فقال رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس، فخرج الحسن بن علي رضي الله عنه في عنقه خرقة يجرّها، فعثر فيها، فسقط على وجهه فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر يريده، فلما رآه الناس أخذوا الصبي فأتوه به، فحمله فقال: قاتل الله الشيطان، إن الولد فتنة، والله ما علمت أني نزلت عن المنبر حتى أوتيت به)^(٤).

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٨).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٩٩٧).

(٣) حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير (٤٦٣/١).

(٤) (سندنه قوي، رواه الطبراني ٣-٢٥ حدثنا عبد الله بن علي الجارودي، حدثنا أحمد بن حفص، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عباد بن إسحاق، عن زيد بن أبي العتاب، عن عبيد بن جريح عن ابن عمر .. وعبيد وزيد تابعيان ثقتان من رجال التقريب، وعباد بن إسحاق صدوق واسمه عبد الرحمن. التهذيب ٦-١٣٧ وإبراهيم ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٩٠ وأحمد ووالده صدوقان من رجال البخاري وشيخ الطبراني حافظ من أئمة الأثر أتى عليه الحاكم والناس انظر: البلغة لحامد الأنصاري حفظه الله (١٩٤).

لم تكن الرحمة للحسن وحده.. فهناك طفلة تنافسه.. وردة اسمها «أمامة» بنت زينب رضي الله عنها.. كانت أمامة ملء سمعه وبصره.. تتعلق به عيناها البريئتان، وتمد يداها الصغيرتان وهو يهيم بالخروج للمسجد، فيستسلم قلبه لتلك البراءة العذبة، فيحملها ويضمها ويقبلها، ويأخذها معه إلى المسجد وهو يريد الصلاة بصحابه رضي الله عنهم. فيراه أحدهم وهو «أبو قتادة» فيقول: (خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلّى، فإذا ركع وضع، وإذا رفع رأسه رفعها)^(١)، (فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها)^(٢).. يفعل ذلك أثناء صلاته بالمؤمنين.

ولم تكن تلك الرحمة والملاطفة منه ﷺ لأولاده فقط، بل كان يشمل بها أبناء المسلمين.. ها هو يزور دار أحد الأنصار.. دار (الربيع بن سراقة الخزرجي)، فيجد طفلاً صغيراً اسمه محمود، فيبدأ بملاطفته وملاعبته، ثم يتناول ﷺ دلواً على حافة البئر، ثم يملأ فمه الطاهر بالماء، ثم يقترب من الصغير ويلاحقه فيطش الماء في وجهه.

حركة تثير الضحك والركض والاختباء البريء لدى الأطفال.. حركة تجلب السعادة.. مازال محمود يذكرها، ويذكر الناس بها، وهو يقول: (عقلت من النبي ﷺ مجّة مجّها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين)^(٣) (مجّها رسول الله ﷺ من دلو في دارنا)^(٤).

قد يفعل الرجل هذا مع أبنائه وبناته، فهل يفعلها حاكم أو عالم أو وجيه مع أطفال غيره.. ماذا سيقول الناس عن ذلك؟ ماذا سيقول الجهل عن ذلك؟.. لكن محمداً ﷺ فعل ذلك مع ذلك الطفل (من بئر في دارهم)^(٥)، بل لقد بلغ به التواضع والرحمة أعماقاً وآفاقاً بعيدة.. بعيدة.. تعال معي إلى هذا المشهد المضحك المبكي في طرقات مدينة النبي ﷺ.. مشهد ل:

النبي ﷺ والإمام والمعاقين

حيث نرى النبي ﷺ يمشي في الطرقات تقوده أمة أو امرأة في عقلها شيء.. دون أن ينهرها، أو يطالبها بالتوقف، أو يطالب أهلها بردعها عن مجلسه.. كان يجعل

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٦).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٧).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٦٤٢٢).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١١٨٥). حديث صحيح رواه البخاري (مشكاة المصابيح - ١٦١٧/٣).

لها من قلبه ووقته نصيباً كالأخرين.. يقوم من مجلس قد يجلس فيه أبو بكر وعمر
وعثمان وعلي إلى امرأة في عقلها اضطراب.. يستمع إليها، وينصت حتى تنتهي
وتقضي حاجتها..

يقول أنس رضي الله عنه: (كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ
فتتطلق به حيث شاءت)^(١)، ويقول: (إن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إن
لي إليك حاجة؟ فقال: يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك.
فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها)^(٢).

كان ﷺ جنة من المشاعر.. ينعم بها الجميع، حتى ضعاف العقول.. حتى العصافير
والطيور.. كان ﷺ جدول حب يشرب منه الجميع فيرتوون.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق
لحاجته، فرأينا حمة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش،
فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولده؟ ردوا ولدها إليها.

ورأى قرية نمل قد أحرقتها، فقال ﷺ: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب
النار)^(٣).

كان ﷺ يتغير وجهه ويتألم لمنظر الفقراء، فلا يقر له قرار حتى يذهب ما بهم،
فإذا لم يجد سوى الكلمات بذلها يريح بها نفوسهم ويقويهم بها.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار،
فجاء قوم عراة، حفاة، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه
رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلّى
ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدِوْهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٤).

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٦).

(٣) حديث صحيح: انظر: صحيح سنن أبي داود (١٦١٨/٣).

(٤) سورة النساء: الآية ١.

﴿ أَنْتَوُا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾^(١).

تصدَّق رجل من دينارهِ، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقِّ تمره.

فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل لقد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً^(٢)، أي من أحيى سنة من سنن الإسلام، ودلَّ عليها فله ذلك الأجر، ومن ابتدع في الإسلام سنة لم يأت بها النبي ﷺ فعليه ذلك الوزر المخيف، ويقول ﷺ: (من دلَّ على خير فله مثل أجره فاعله)^(٣)، (ومن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)^(٤). كانت تلك الصدقات سنة حسنة.. تهلَّل وجه النبي ﷺ عندما رآها، لأنه رأى الجوع والعري ينزاح عن أولئك المساكين، الذين أحسَّوا بالحياة تسري في عروقهم من جديد، لكن الرحمة أحياناً تستغل.. يستغلها الأوغاد واللئام، وذلك لا يعني أن يتوقف تدفقها للتوقعات والظنون.. رحمته وكرمه ﷺ متدفق دون توقف، حتى مع الخونة إلى أن يظهروا الخيانة ويمارسوها جهاراً كما في هذه القصة:

قصة أولها رحمة وآخرها جحيم

مجموعة من اللصوص من عكل وعرينة.. مجموعة من الأوغاد سمعوا برحمته ﷺ، وبشفقته على أصحابه وعلى الناس جميعاً، فظنَّوا أن بإمكانهم استدرار رحمته، واستدراج طبيبته، ثم الضحك عليه بعد نوال عطائه. جاء هؤلاء إلى المدينة وتظاهروا بالإسلام (وبابعوهم ﷺ)^(٥) لكن حمى المدينة أصابتهم، فأشفق عليهم ﷺ عندما قالوا: (يا نبي الله،

(١) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٠١٧) الزكاة والنسائي (الصحيح ٢-٥٣٩).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٩٣).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٩٧).

(٥) حديث صحيح - رواه مسلم - القسامة.

إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة^(١) (فقال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة، فتشربوا من ألبانها وأبوالها)^(٢) (فأمر لهم رسول الله ﷺ بنزود^(٣)، وراع، أمرهم فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها)^(٤).

أجل أمرهم بشرب أبوال الإبل، وهي معجزة طبية ثبتت علمياً في ألفيتنا الثالثة كدليل على نبوته^(٥) (فانطلقوا، فشربوا من أبوالها وألبانها حتى صحوا وسمنوا)^(٦) (فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا النعم)^(٧) و(سملوا أعين الرعاء)^(٨) أي فقأوا عينيه بالحديد. (فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم)^(٩) (فجاء الخبر في أول النهار، فبعث ﷺ في آثارهم، فلما ارتفع النهار جاء بهم، فأمر بقطع أيديهم، وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وألقوا في الحرّة، يستسقون فلا يسقون)^(١٠) (ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا)^(١١).

ما ذنب ذلك الراعي المسكين الذي اعتنى بهم وبصحتهم ٩٠٠ سقاهم وممرضهم وأطعمهم، فكان جزاؤه أن فقأوا عينيه ثم قتلوه!! إن فقاهم لعيني الراعي قبل قتله دليل على توغل الإجرام والحقد في نفوس هؤلاء الأندال، الذين جمعوا كل صفات الخسة والدناءة.. كفروا، وقتلوا، ومثلوا، وخانوا، وسرقوا، فكان عقابهم شديداً بحجم جريمتهم. إن أمثال هؤلاء الرعاء والجهلة وقطاع الطرق يشكلون خطراً على كل أرض يطانونها، ولا يمكن أن يوقف نزيف الخوف والدم الذي يسفكونه سوى السيف البتار. أمثال هؤلاء يغريهم ضعف الضعيف، وحلم الحليم وتسامح الكريم، فينثرون من خلال ذلك الرعب في قلوب الحجاج والتجار والمسافرين.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢) ومعنى استوخموا أي لم يوافق مناخها أجسادهم.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٦٧١) القسامة.

(٣) الذود هو القطيع من الإبل.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(٥) للدكتورة فائق خورشيد براءة اختراع حول هذا الموضوع وللدكتورة أحلام العوضي وزميلاتها أبحاث أخرى

مبهرة حول بول الإبل كما نشرت جريدة الرياض الجمعة ٢٤ - شوال خيراً عن براءة اختراع أخرى.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٢٣).

(٨) حديث صحيح رواه مسلم - القسامة (١٦٧١).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(١١) حديث صحيح رواه مسلم - القسامة (١٦٧١).

ربما أغرى هؤلاء الأجلاف ذلك الإنكسار الذي حدث للمؤمنين في غزوة أحد، وربما كانوا طلائع خيانة واستكشاف لمجرم قابع في عرنه.. يجمع جيشاً لاقتحام المدينة ونهبها.. مجرم يثير القشعريرة.. اسمه (خالد بن سفيان بن نبيح) يقود بني لحيان.

علم ﷺ بذلك المخطط، لكنه فكر بطريقة آمنة يتخلص فيها من حرب ضروس بطعنة واحدة.. يحقن فيها دماء جيوش تحتاج إلى دماؤها ورجالها. فكر ﷺ ب:

اغتيال خالد بن سفيان

وقع اختيار رسول الله ﷺ على فارس مغوار يختصر المسافات والأحداث.. يجمع الجيوش والآلام والنواح بطعنة واحدة.

وقع اختياره ﷺ على فارس يدعى (عبد الله بن أنيس) فتعالوا إلى الأحداث والحديث، وفارسنا الذي يقول: (دعاني رسول الله ﷺ فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليفزوني، وهو بعرنة، فأته فاقتله. قلت: يا رسول الله، انعته^(١) لي حتى أعرفه. قال ﷺ: إذا رأيته وجدت له قشعريرة [قلت: والذي أكرمك ما هبت شيئاً قط].

فخرجت متوشحاً سيفي، حتى وقعت عليه بعرنة «مع ظعن^(٢) يرتاد لهن منزلاً»، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت له ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلي عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه، أومئ برأسي الركوع والسجود.

فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا. قال: أجل، أنا في ذلك [قلت: باغي حاجة فهل من مبيت؟ قال: نعم فالحق بي] فمشيت معه شيئاً، حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركته طعائنه مكبات عليه، [ثم غشيت الجبال ولجمته حتى إذا ذهب الناس خرجت حتى] قدمت على رسول الله ﷺ، فرآني، فقال: أفلح الوجه. قلت: قتلته يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «صدقت».

(١) أي صفه لي.

(٢) نساء.

ثم قام معي رسول الله ﷺ، فدخل في بيته فأعطاني عصا، فقال: أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس. فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها. قالوا: أولاً ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخضرون يومئذ يوم القيامة، فقرنها عبد الله بسيفه^(١) الذي حطم صنماً وخطراً في دروب المؤمنين.. إن هذا النوع من الاغتيال لم يكن باجتهاد فردي.. لم يقم به أحد من أصحابه حماساً وتطوعاً، وهم قادرون على أكثر من ذلك.. إنها دماء لا يجوز الخوض فيها دون الرجوع إلى النبي الإمام- النص، وإلا فإنها ضرب من التهور غير المبرر.

لم يكن عبد الله بن أنيس وحده الذي يبعث في سرية مكونة من فرد واحد.. كان هناك من ينافسه.. رجل شديد البأس قويّ البنية.. جسور لا يهاب الموت.. يعشق الشهادة.. كان ﷺ يبعثه إلى أعماق قريش.. يتغلغل فيها، لا ليقتل، بل لينقذ، ليخلص بعض أولئك المستضعفين في مكة الذي أبقاهم ذوهم في مكة، وقهروهم ومنعواهم من الهجرة، فكانت تلك المهمات:

(١) حديث صحيح عدا ما بين الأقواس الصغيرة، وقد حسن الحافظان ابن حجر وابن كثير سند أحمد وأبي داود وهو سند ضعيف، وبقية الحديث هو: فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفه، ثم دفنا جميعاً، والحديث عند أحمد ٤٩٦-٣ والطبراني (مسند العبادله - ٧٦) وأبي داود (١٢٤٩) مختصراً. وقد ضعفه الإمام الألباني في ضعيف أبي داود (١٢٣) وسنده عند أحمد وأبي داود محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه. لكن ابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه الثقة عند أحمد ٤٩٦-٣ فتبقى مشكلة ابن عبد الله بن أنيس، وعند الرجوع للتقريب نجد أن الحافظ قال: إن اسمه: ضمرة أو عمرو، أو دون اسم.. ولكن عندما نرجع إلى سنن البيهقي ٢٥٦-٣ نجد أنه قد سماه بعبيد الله، وهو الأصوب والأصح للتصريح من تلميذه باسمه.. لكن معرفتنا باسمه لا تفي بالغرض، فالرجل تابعي لم يوثق فيحتاج إلى شاهد أو متابعة، وقد وجدت هذه المتابعة والشاهد عند الطبراني. حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثني أبي، حدثنا عبد العزيز الدراوردي، عن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن كعب القرظي، قال، قال عبد الله بن أنيس.. وفي هذا السند خطأ فالصواب يزيد بن عبد الملك بن الهاد وهو تابعي ثقة وكذلك محمد بن كعب القرظي وسائر رجال السند ثقات وهو متصل انظر: التقريب (٣٤/١ - ٥١٢) (٢/٢٠٣-٣٦٧) وشيخ الطبراني ثقة انظر: مجمع البحرين (١٥٥/٣) ورواية الدراوردي ليست عن عبيد الله العمري. فالسند حسن والحديث صحيح بالسندين والزيادات بين المعقوفين من رواية الطبراني.

سرايا لمرثد بن أبي مرثد

وكان لمرثد رضي الله عنه صديقة في مكة.. ينزل عليها سرّاً، وكان يحبها وتحبه وتحفظ سره وعلاقته بها.. اسمها: (عناق)، لكن أمراً حدث في المدينة أثار غضب تلك الحسنة، فخانته مرثد ونادت قريشاً لكي يحاصروه ويقبضوا عليه، فماذا حدث لمرثد بن أبي مرثد؟..

يقول أحد الصحابة: إن (مرثد بن أبي مرثد، كان رجلاً «شديداً» يحمل الأسرى من مكة، حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغية بمكة يقال لها (عناق)، وكانت صديقة له، وأنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحتمله،

قال مرثد: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط، من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق، فأبصرت سواد ظلي بجانب الحائط، فلما انتهت إليّ عرفتني فقالت: «من هذا» مرثد؟ فقلت: مرثد. قالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة «انطلق الليلة فبت عندنا في الرحل»..

قلت: يا عناق..

حرم الله الزنا

«إن رسول الله ﷺ حرم الزنا». قالت: يا أهل الخيام، «هذا الدلدل، هذا الذي يحمل أسراءكم من مكة إلى المدينة»..

فتبعني ثمانية، وسلكت الخدمة^(١)، فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت، فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا «فطار بولهم علي»، فظل بولهم على رأسي، وعمّاهم الله عني. ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي، فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر، «فلما انتهيت به إلى الأراك» فككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟

«فسكت عني»، فأمسك رسول الله ﷺ ولم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

(١) جبل عند أحد مداخل مكة.

فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها^(١).

لأنها تحترف الزنا وتصرّ عليه، أما إذا تابت الزانية، وتاب الزاني وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، فيجوز عند ذلك، أمّا إذا لم يتوبوا فهم أمراض متقلّة.. تتخر الأجساد والمجتمعات.

إذاً فهناك رجال يمكن الاعتماد عليهم للقيام بمهام خطيرة ودقيقة، والنبى ﷺ لم يتردد في بثّهم هنا وهناك، فالمدينة في خطر، والدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى دولة قوية وذكية لنشرها، فكان لمرثد دور، وكان لعبد الله بن أنيس دور آخر، وللذين داخل المدينة أدوار يؤدونها تحت قيادة هذا النبى الحكيم.

في إحدى هذه المهمات أراح النبى ﷺ دولته وأصحابه من فتنة عمياء، ومن حرب قد تكون فادحة الخسائر، وأراح بني لحيان من كارثة قد تحلّ بهم على يد قائدهم المتهور خالد بن نبیح، لكن النبى ﷺ لم يكتف بهذه السرية ذات الفارس الفذ، فقريش وبنو لحيان وبعض القبائل أغراهم ذلك الانكسار الذي حدث للمسلمين في أحد، لذلك لابدّ من الحذر واليقظة.. لابدّ من دراسة المنطقة والتعامل معها بحرص، فقد يكون فيها أكثر من خالد بن نبیح.

هناك مناطق توتر مخيفة بين مكة والمدينة.. أشدها تلك التي تسكنها هذيل قبيلة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، تلك القبيلة التي ينتمي لها بنو لحيان، ويسكنها بجوارهم بنو سليم، وإليها ينتمي بطون (رعل وذكوان وعصية) وهؤلاء جميعاً يسكنون قريباً من مكة، وقد تمّ القضاء على إحدى بؤر التوتر وهو خالد بن نبیح، لكن بقي من هو أشدّ خطورة منه.. بقي طاغوت من غطفان اسمه (عامر بن الطفيل) هذا الطاغوت كان وقحاً لدرجة أنه جاء إلى المدينة يهدد النبى ﷺ إذا لم يرض بمطالبه.

(١) سنده حسن رواه النسائي (الصحيح - ٢٠٢٧) والترمذي (الصحيح - ٢٥٢٨) واللفظ له والزوائد للنسائي، من طريق عبيد الله بن الأحنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعبيد الله، ثقة التقريب ٣٦٩ وبقيّة السند حسن مشهور.

عامر بن الطفيل يهدد النبي ﷺ

يقول أنس بن مالك: (كان رئيس المشركين (عامر بن الطفيل، وكان أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال:

أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر.

أو: أن أكون خليفتك من بعدك.

أو: أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء)^(١).

رفض ﷺ تلك المطالب الطاغوتية، فقد بعثه الله للناس كافةً.. لنشر التوحيد وإزالة الشرك عن هذه الأرض كلها، وإزالة الطواغيت أمثال عامر بن الطفيل، وتحكيم شرعه لا لمقاسمة الأصنام والعادات والتقاليد، ولذلك أخذ ﷺ حذره من ذلك الأهوج، ومن بني لحيان وبني سليم، فقام بعقد عهدٍ بينه وبين جيرانهم بني عامر حتى يأمن اتفاقهم عليه أو مساندتهم لقريش إذا ما قامت قريش بعمل عسكري في المستقبل. لكن ذلك كله لا يكفي، فعامر بن الطفيل يحتاج إلى رصد ومراقبة أكثر، فالظروف الحالية دقيقة وخطيرة، وقريش مازالت تحتفظ بقائمة من الأسماء.. لها معها ثأر منذ غزوة بدر، ولم تتمكن منهم في غزوة أُحُد، وكان على رأس تلك القائمة الصحابي الشجاع (عاصم بن ثابت) الذي شهد له ﷺ بإجادة القتال في غزوة أُحُد.. هذا الأسد كان قد فتك بعظيم من طواغيت قريش، ورأسه مطلوب بأي ثمن، والفارس الآخر اسمه (خبيب بن عدي) وقد اجتثَّ خبيب رضي الله عنه طاغوتاً آخر يدعى (الحارث بن عامر بن نوفل) وهناك آخرون مطلوبون، لكنني ذكرت هذين الفارسين لأن الرسول ﷺ استدعاهما، واستدعى معهما ثمانية من الشجعان.. هؤلاء العشرة كوّنوا سرية استطلاع للمنطقة الواقعة بين مكة والمدينة، ومهمتهم تغطي أراضي يسكنها بنو لحيان وسليم وبنو عامر، وأطلق فيما بعد على هذه السرية:

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١) والبيهقي (٣٤٥/٣) واللفظ له.